الفصل السادس

البيئة والمناخ

التربية للكبير قبل الصغير

لقد تبين لنا مدى المسئولية الملقاة على عاتق الأبوين لتربية الأطفال وفقا لأسس سليمة. ويتميز دور الأم على وجه الخصوص في المرحلة التي يكون فيها الطفل من ثلاث إلى سبع سنوات. وكانت أم صلاح الدين خير مثال على ذلك بما بذلته من جهد عظيم في تربية ابنها. ولذلك فعلى كل أم أو فتاة تستعد للزواج أن تقتدي بتلك الأم إذا ما أرادت لابنها نجاحا وفلاحا في الدنيا والآخرة بإذن الله تبارك وتعالى.

ولكن هل كل أب وكل أم مؤهلين لتحمل هذه المسئولية؟ أم من الأحرى مراجعة الذات والعمل على التحلي بالصفات الخمسة للشخصية السوية حتى يكون هناك مربّون وليس معطلون لأجيال قادمة؟

تخطيط التقدم، وعشوائية التخلف

لقد أدرك المحللون للمناخ العام الذي تعيشه الأمة الإسلامية حاليا أن مجتمعنا على ما هو عليه يعانى من أربع أزمات معطلة للتقدم. وقد نجح القائمون على تربية صلاح الدين في تلافى تلك المعطلات.

وتتجسد أولى هذه الأزمات في التخلف الواضح في مظاهر الحياة كلها حتى على الجانب الديني. وكل ذلك ناتج عن عدم الاستعانة بالأساليب السليمة في إيجاد حل للقضايا المختلفة.

أما الأزمة التي تشهد قدرا غير محدود من العشوائية فهي أزمة ندرة القيادة الكفء، وذلك يرجع إلى أن اختيار الغالب الأعم من القيادات الحالية يتم تبعا لظروف خاصة لا صلة لها بالكفاءة والمهارة والخبرة.

هذا بالإضافة إلى أزمة عدم الانتماء إلى هويتنا الأصلية. وعلى سبيل المثال، كيف يمكن التحدث عن مجتمع ينتمي إلى الإسلام والعروبة والإنسانية في حين أنه عندما أعلنت الأمم المتحدة عن جمع توقيعات من الدول الإسلامية لمعارضة الغزو الأمريكي لأفغانستان كان عدد الموقعين لا يتجاوز ثلاثة مليون مسلم من أصل مليار ومائتين وخمسين مليون مسلم يعيشون على وجه الكرة الأرضية؟ وفى المقابل، كم من ملايين المشاهدين يقبلون يوميا على الاتصال بالبرامج التليفزيونية بغية الفوز بجائزة مالية تشوبها الحرمة؟ فما هي هويتنا إذن؟ هل هي هوية غنائية دنيوية، أم هوية إسلامية تؤدى بصاحبها إلى السعادة في الدنيا والآخرة بإذن الله العلى القدير؟

ولا ينبغي أن نغفل أثر الأزمة الرابعة في تدهور أحوال الأمة، ألا وهى أزمة انحدار الفاعلية إلى مستوى يكاد يؤدى إلى تلاشيها نهائيا من حياتنا كمسلمين حيث بعدنا تماما عن التفكير في فعل شيء يفيد الأمة الإسلامية.

صلاح الدين ... تكامل الدنيا والدين

وبعودة إلى المناخ والأحوال التي نشأ صلاح الدين في ظلها، نجده نشطا في حفظ القرآن وهو في التاسعة من عمره حتى إنه لم يبلغ الحادية عشر إلا وكان قد

حفظه كاملا عن ظهر قلب. وقد حدث ذلك بتلازم مع حضور صلاح الدين لدرس يومي مابين المغرب والعشاء يستمع فيه للأجلاء من علماء الدين أمثال قطب الدين النيسابورى، وعبد الله الدرى، والحافظ أبى طاهر السلفي، وعبد الله بن أبى عصرون. وبذلك كان صلاح الدين لا يترك مجلسا من مجالس العلم يؤمه عالما أو فقيها إلا وشارك فيه. هل هذا يعنى أن صلاح الدين لم يكن له أصدقاء ولم يكن يخرج من المنزل للتنزه؟ بل كان له العديد من الأخلاء يجتمع معهم مساء في مكان للترويح، حتى وقت مناسب، ثم ينسحب كل منهم إلى منزله ليقوم ليلا للتهجد. أما شباب اليوم، فإن غاية ما يشغله هو السهر لوقت متأخر من الليل مع الأصدقاء، وعند الاستيقاظ في اليوم التالي يعاودون الكرّة بالتجمع الذي لا ينتج عنه سوى مضيعة للوقت. ولكن الأمر بالنسبة لصلاح الدين كان مختلفا، فإلى جانب بره بوالديه والاهتمام بدراسته بما تشمله من تعلم اللغة والرياضيات وعلم الفلك كان يلعب الكرة ويلتقي بأصدقائه، مؤكدا بذلك على معنى التوازن في أنشطته بين الدين والدنيا. وعلى سبيل المثال، فقد درس كتاب التنبيه في الفقه للإمام الشافعي، كما حفظ كتاب الحماسة في الشعر. وقد أدى ذلك كله إلى تكوين شخصيته المتكاملة التي سمحت له بالتنوع في الاهتمامات الصالحة والمفيدة للذات وللأمة. ومثل هذه الشخصية هي التي ينبغي توليتها القيادة.

أسد ... معلما للقيادة

لا شك أن أسد الدين شيركوه كان له بالغ الأثر على ابن أخيه صلاح الدين، لما بلغه ذلك العم من حماس للدين ورجولة و مروءة. ولم يتوقف أسد الدين عند دور العم لصلاح الدين ، وإنما كان له المعلم الذي وجهه إلى طريق الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى. ونعم المعلم ذلك الذي يتحلى بالشجاعة والحمية للدين، والصبر مع الاستمرار في المحاولة حتى بلوغ المأرب الشرعي. وبالفعل، حرص أسد الدين أشد

الحرص على تدريب ابن أخيه على عدم الاستسلام للإخفاق، وغرس فيه الإصرار على إعادة التجربة حتى تنجح. ومثلا، فعندما سقط صلاح الدين من على ظهر الجواد لأول مرة لم يكن عمره قد تعدى السابعة، وأسرع نحوه والده وإخوته للاطمئنان عليه ، فما كان من أسد الدين إلا أن منعهم تماما من الاقتراب من صلاح الدين وضربه ضربة خفيفة على قدمه وقال له: "ما ينبغي ليوسف أن يقع مثل هذه الوقعة. عليك أن تمسك حصانك فلا تجعله يسيرك! كن أنت والحصان جسدا واحدا". وكان ذلك هو الأسلوب الذي اتبعه أسد الدين في تعليم صلاح الدين الفروسية، بما فيه من مزيج للتدريب البدني والإتقان الرياضي من جانب، والتربية النفسية على عدم اليأس والإصرار على النجاح من جانب آخر.

وقياسا على ذلك، فإن القدوة في المجال الرياضي لا تقتصر على مهارة الأداء، بل إنها لا تصبح قدوة حقيقية إلا إذا تحلت بالأخلاق الحميدة والسلوك القويم. ويحدث أحيانا في رياضة كرة القدم أو أى رياضة أخرى أن يبرز لاعب بمهاراته ولكنه في الأسف ساقط أخلاقيا. وفى المقابل، هناك صورة مشرقة للشاب الذي يحقق تفوقا في الرياضة التي يمارسها، ونتيجة لاتصاله بالله جل شأنه، فهو يسجد شاكرا لبارئه في نفس اللحظة التي وفقه فيها الرحمن الرحيم إلى تحقيق انجاز ملحوظ. وبالتالي يكون هذا السلوك الإيماني قدوة ودليلا على ضرورة الاتصال بالله في كل وقت وفى ظل موقف، حتى عند ممارسة الرياضة.

أما عن صلابة صلاح الدين، فمرجعها إلى تأسيه بمواقف عمه أثناء القتال. كان أسد الدين شيركوه يرفض تماما أن يكون هناك معلم غيره لتدريب ابن أخيه على حمل السلاح، ورمى الرمح، والمبارزة، وفنون القتال المختلفة. وفى بعض الأحيان، كان نجم الدين أيوب يخاف على ابنه من قسوة التدريب على يد أسد الدين شيركوه الذي كان يصل بجدية التدريب إلى حد إمكانية إصابة صلاح الدين بأذى، فيتبادل الأخوان الحديث في هذا الخصوص:

" (نجم الدين) : رفقا بالصبي يا أسد الدين، أراك تقسو على غلام لين العظم.

(أسد الدين) : والله ما أريد له إلا كل الخير ، فإني أصبو إلى أن يصير خير منى وأن يتفوق على معلمه".

وبالفعل، كانت التدريبات التي يتلقاها صلاح الدين من عمه تشهد قدرا كبيرا من الحماس والشدة والجدية والفاعلية. وهكذا يتضح أن أمر صلاح الدين لم يكن مجرد أمر رجل يغار على دينه فمسك السيف وخرج ليفتح حطين. وإنما المسألة تطلبت تدريبا شاقا مستمرا على تعاقب السنوات واختلاف الظروف، بما في ذلك من احتكاك وتعلم من القادة.

وبناء على ما سبق، فإن التخطيط لإعداد جيل قيادي ينبغي أن يبدأ بتدريب من هم في الثامنة عشر من عمرهم وإتاحة فرصة احتكاكهم بالقيادات. وذلك حتى لا يكون من الوزراء من تعدى الستين أو السبعين عاما.

وإلى جانب قوة شخصية أسد الدين وحماسته للدين وجهاده في سبيل الله سبحانه وتعالى، فإنه كان قريبا للغاية من صلاح الدين. ولذلك كان صلاح الدين يلجأ إليه في بعض الأحيان حتى يستشيره في مشكلة يواجهها ويحصل منه على النصح الغالي المفيد. وكأي شاب، شعر صلاح الدين ذات مرة بالحرج يملأ صدره حيث إنه يشعر دائما بالسكينة والطمأنينة أثناء توجهه لله تبارك وتعالى داخل المسجد، ولكن ما أن يلتقي بأصدقائه ويذهبون سويا إلى مكان آخر، حتى يشعر بالتناقض بين ما يسمعه من العلماء والفقهاء وبين ما يدور من حوارات أثناء لقائه بأصدقائه. ولما كان عمه أسد الدين شيركوه هو أكثر من يمكنه مصارحتهم في ذلك الوقت، دار بينهما الحوار التالي:

" (صلاح الدين) : السلام عليكم يا عماه.

(أسد الدين) : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

(صلاح الدين) : من أنا يا عماه؟

(أسد الدين) : أنت يوسف ابن أخي نجم الدين أيوب، هل نسيت من أنت يا صلاح الدين؟ أم ماذا تقصد؟

(صلاح الدين) : إذا كنت في دروس المسجد حلقت نفسي كالطيور، وأحس أنى أحب هذا.

وعندما أخرج مع أصحابي أكون سعيدا وأحب هذا. من أنا من هؤلاء؟

(أسد الدين) : أنت كل هؤلاء يا بن أخي. إن ما لمسته في نفسك إنما هو إمارات صدق

ودليل على نبوغك، فلا تدع للشيطان مدخلا إليك، فالإنسان الصادق يعيش ما يعيشه بصدق وبساطة، يعطى لمقام الجد حقه ولمقام الترويح قدره".

ومن ذلك الحوار تتضح قدرة أسد الدين شيركوه على تهدئة صلاح الدين وبعث الطمأنينة في قلبه. وفى الواقع، فإن ما كان يشعر به صلاح الدين ليس إلا ما جاء على لسان رسول الله ﷺ :**"إن الإيمان يزداد وينقص"** (أخرجه الطبراني والحاكم). وليس في شكوى صلاح الدين من جديد إذ أن الصحابة رضي الله عنهم كانت لهم أحيانا نفس الشكوى، فأثناء تواجدهم في صحبة النبي الكريم كانوا يشعرون بحالة من الصفاء والسكينة لا يجدونها عند مفارقتهم له. وهذا أمر طبيعي، ولكن المهم هو ألا يغفل الواحد منا عن الرابطة التي تربطه بالله العلى القدير مهما صدر منه من تجاوزات. ولذا، فالأحرى بنا أن نرجع إلى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[فاطر:١٨].

جمال الدين ... جمال الجود والسماحة

والشخصية الثانية من الشخصيات المؤثرة في صلاح الدين الأيوبي هي شخصية جمال الدين الأصفهاني الذي اتسم عن حق بجمال الروح والعمل، وسماحة الخلق، والعطاء السخي. ولم يكن الناس يحبون تلك الشخصية لمنصب صاحبها، وإنما لعطائه الفياض وكرمه الشديد لعباد الله في كل مكان. ورغم الصفات الحميدة والنادرة لهذه الشخصية فلا يعرفها إلا القليل من الناس. كان جمال الدين الأصفهاني الصديق الحميم لأسد الدين شيركوه، فكان من الطبيعي أن يكون أسد الدين سببا في تعريف جمال الدين بصلاح الدين. وبمرور الأيام صار جمال الدين موجها ومعاونا لصلاح الدين على أعمال الخير التي كان يقوم بها.

ومن الأمثلة التي من شأنها أن توضح مدى الكرم الذي اتسم به جمال الدين الأصفهاني أنه لاحظ أن المسافة التي يقطعها الحجيج من دمشق إلى المدينة المنورة طويلة جدا، فما كان منه إلا أن أنشأ عدة دُور للإقامة على طول الطريق واستضاف بها المسافرون دون أن يدفعوا أي مقابل مادي، إذ أنه كان ينتظر المقابل من الله عز وجل. ومثال آخر لشدة سماحته أنه جاء على نفقته الخاصة بماء زمزم للحجيج من مكة إلى جبل عرفات في يوم عرفة حتى يسقيهم. وكان أيضا أول من تكفل بنحت مدرج صخري في جبل عرفات لتيسير صعود الحجيج إليه ونزولهم منه. وذات يوم أرسل له أمير المدينة المنورة يشكو إليه كثرة سطو اللصوص في ذلك الوقت على المنازل في مدينة الرسول ﷺ، فأمر جمال الدين بإحاطة المدينة المنورة بسور على نفقته بالرغم من أنه وقتها لم يكن متقلدا منصبا ذا نفوذ أو مسئولية. ولكن كان كل همه في التفاعل الإيجابي مع تلك المشكلة. وقد عان الناس في إحدى السنوات من جدب شديد لدرجة أنهم لم يجدوا سوى بيت جمال الدين للذهاب إليه طالبين الصدقات والمساعدات. واستمر عطاؤه للمستغيثين به حتى نفذ كل ما كان لديه من مؤن

ومال. ومع ذلك، جاءه رجل يطلب الزاد، فكان من الصعب على جمال الدين أن يرد ذلك الرجل فأعطاه الشيء الوحيد الذي تبقى له، إلا وهى عباءته!

ولنسأل أنفسنا، ماذا كان الدافع وراء تكفل جمال الدين الأصفهاني بكل تلك الأعمال الخيرية؟ وهل كان من الممكن ألا يتأثر صلاح الدين بتلك الشخصية؟ إذن، فلا غرابة في أن يؤثر الكرم البالغ لذلك الرجل على صلاح الدين الأيوبي بعد أن كان شاهدا على كل تلك المظاهر من الإغداق الشديد. وبالتالي، فلا عجب أن يحاكى التلميذ معلمه في صفات الجود والسماحة، حتى إن كل ما تركه صلاح الدين من مال حينما حضرته الوفاة كان عبارة عن جنيه مصري واحد لا غير. والجدير بالملاحظة أن تصدق صلاح الدين وسماحته كانا مع المسلم ولغير المسلم، فعند فتحه لبيت المقدس، افتدى صلاح الدين ثمانية عشر ألف أسير من ماله الخاص، فدفع عشرة دنانير عن كل منهم، أي إجمالي ما دفعه مائة وثمانون ألف دينار أخرجها صلاح الدين لبيت مال المسلمين لافتداء غير المسلم.

ومن كل ما سبق تتضح أهمية المناخ الذي أحاط بصلاح الدين والذي جعله يتسلح بالصفات الحميدة التي عرفت عنه. فهل نحن نوفر مثل ذلك المناخ الصالح لأبنائنا؟ هل يحرص الآباء على أن يكون أصدقاؤهم من أمثال أسد الدين شيركوه في رجولته وصلابته، وجمال الدين الأصفهاني بجوده وسماحته؟ وعند الإجابة بالنفي، وهو الغالب الأعم، نكون قد وضعنا أيدينا على سبب رئيسي من أسباب تخلف أمتنا. ويكفينا الإشارة إلى الآية الكريمة التي كان يرددها جمال الدين الأصفهاني من قول الله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

وكانت الأعمال الخيرية وسماحة جمال الدين الأصفهاني سببا في نبوغه وذيوع صيته حتى أن الوزراء بدأوا يغارون منه ويشعرون بالضغينة تجاهه. ونتيجة لذلك الحقد، أوغر أولئك الوزراء صدر الأمير ضده حتى أصدر قرارا بعزله من الوزارة. هل من المعقول أن تتم إقالة مثل تلك الشخصية الأمينة، المتبعة للصراط المستقيم، المحبة الخير للناس؟ بل إن الأمير لم يكتف بذلك، فقد حدد إقامته أيضا. وبلغ الحال بجمال الدين الأصفهاني إلى أن يقول وهو على فراش المرض: "الحمد لله الذي لم ينقلني من مقعد الحكم وفتنته إلى قبري بل نقلني من سجني وفراشي البسيط هذا إلى قبري. الحمد لله الذي جعل ذكرى بين الناس لشخصي وليس لمقعد وزارتي. الحمد لله الذي يقبضني وأنا من المساكين". وهكذا، فلقد حمد جمال الدين الأصفهاني ربه سبحانه وتعالى على أن روحه قد قبضت من على فراشه وليس من على كرسي الحكم.

وقبل وفاته بأيام، رأى جمال الدين الأصفهاني رؤية مؤداها أن نهاية حياته سوف يسبقها مقدم طائر أبيض من نافذة بيته. فيقول لأبى القاسم: "إذا شاهدت الطائر الأبيض قد حل بالدار فأخبرني". فظن أبو القاسم الصوفي أن جمال الدين قد اختلط عليه الأمر نظرا لكبر سنه. ولكن، في يوم وفاة جمال الدين، سمعه أبوالقاسم من خارج غرفته وهو يعلو بصوته قائلا :"ابحث عن الطائر الأبيض يا أبا القاسم. هل جاء الطائر الأبيض؟". فخرج أبو القاسم يبحث عن الطائر في الدور كلها ولم يجد ذاك الطائر، ورجع إلى جمال الدين يخبره، فإذا بصوت المحتضر يعلو بالشهادتين :"أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حبيبا جاء على فاقة". فكم كان جمال الدين مشتاقا للقاء ربه سبحانه وتعالى. ومات ساعتها جمال الدين الأصفهاني. ويقول أبو القاسم الصوفي:"فشاهدت طائرا أبيض على نافذة غرفته، وقد صدق الرجل، لقد تحققت الرؤية التي رآها". وكان مسك ختام جمال

الدين الأصفهاني دفنه بالمدينة المنورة حيث كان قد أوصى بدفنه بالبقيع. ورغم بعد المدينة المنورة عن دمشق وحمص والمناطق التي عاش فيها، جاء الناس من كل تلك البلدان إلى مسجد الرسول ﷺ لتوديع جمال الدين الأصفهاني. لم تكن جنازته رسمية ولا حشد لها حشود بالأمر كما يحدث هذه الأيام ، وإنما تدفق الناس من تلقاء نفسهم من دمشق وحلب وحمص والموصل وبغداد ومصر للصلاة على جمال الدين الأصفهاني. يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

[مريم:٩٦]

حقيقة، إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث، منها الصدقة الجارية. ولعل صدقة جمال الدين الأصفهاني تجرى إليه في كتابه إلى هذه اللحظة، بل لعله يكتب بالفردوس الأعلى برحمة الله عز وجل.

كان من الضروري الإفاضة في الحديث عن المناخ المحيط بصلاح الدين الأيوبي لإيضاح كيف أن ذلك المناخ كان خير معين له على التحلي بالصفات الحميدة ومن ضمنها حب العطاء بسخاء، والذي اكتسبه نتيجة لقربه من جمال الدين الأصفهاني، ذلك الرجل الجواد . و لذا ، فليكن كل من جمال الدين الأصفهاني وصلاح الدين الأيوبي قدوة لنا في الإقبال على التصدق على فقراء المسلمين ، و الإتيان بأعمال خيرية وأوقاف للمسلمين. ولا يشترط أن تقتصر المشاركة في أعمال الخير على التبرع بالمال، وإنما يتقبل الله سبحانه وتعالى أي عمل يساهم في إصلاح أحوال الرعايا والأمة الإسلامية. وعلى سبيل المثال وليس الحصر، من الممكن قضاء بعض الوقت في زيارة دور الأيتام والاشتراك في رعايتهم سواء بالتعليم أو التوجيه أو العطف عليهم.